

الشعرية واللغة الصوفية في ديوان تعالي لأبحث فيك عني ليحي السماوي
Poetry and Sufi language in the collection "Come, let me search in you for me, Yahya Al-Samaoui"

حوحو دلال

جامعة محمد خيضر بسكرة dalal.houhou@univ-biskra.dz

تاريخ القبول: 2024/10/05

تاريخ الإستلام: 2024/01/09

ملخص:

تروم هذه الدراسة الموسومة بـ: "الشعرية واللغة الصوفية في ديوان تعالي لأبحث فيك عني ليحي السماوي". لمعرفة فيوضات الصوفية وعلاقتها باللغة الشعرية، خاصة أن اللغة الصوفية احتلت موقعها داخل المنظومة المعرفية وفرضت نفسها بشكل لافت ومثير. والفضل في ذلك يعود إلى ثراء هذه اللغة وتجاوزها لكل الحدود الممكنة والمعروفة. وهنا يجدر طرح سؤال مهم في هذا المضمار هو: هل اللغة الصوفية تتميز بالشعرية شأنها شأن الشعر العربي؟

الكلمات المفتاحية: اللغة الصوفية، فيوضات الشعرية، الشعر العربي.

Abstract:

This tagged study aims to... Poetry and Sufi language in the collection "Come, let me search in you for me, Yahia Al-Samaoui". To know the flows of Sufism and their relationship to poetic language. Especially since the Sufi, language occupied its place within the cognitive system and imposed itself in a remarkable and exciting way. The credit for this is due to the richness of this language and its transcendence of all possible and known limits. Here it is worth asking an important question in this regard: Is the Sufi language characterized by poetry, like Arabic poetry.

Keywords: Sufi language, poetic flows, Arabic poetry.

مقدمة

عرفت اللغة الشعرية مسارا جديدا في الدراسات العربية الصوفية المعاصرة، فهي أساس العملية الابداعية الفنية. ومفهوم الأدباء المتصوفة للشعرية يتخذ أبعادا جمالية فنية جديدة تنطلق من فهمهم للشعر الذي يعد ديوانهم ومستودع تراثهم ومنبع أفكارهم وهواجسهم وتجاربهم المعاصرة. ويرى الدارسون أن جمال القصيدة يكمن في لغتها الشعرية خاصة أن اللغة هي موطن الهزة الشعرية التي تصدم وتنعش وتجسد الفاعلية الشعرية "بطريقة تأثرية جمالية. و الشعرية لم يعرفها العرب والمتصوفة بمعناها الحديث، وإنما تداولت عندهم ألفاظ، مثل: (الشاعرية، وشعر الشاعر، والقول الشعري، والقول غير الشعري، والأقاويل الشعرية)، وهي مصطلحات قديمة واستمر استعمالها إلى غاية العصر الحديث.

أما اللغة الصوفية تهدف إلى وصف ما يتأبى وإلى قول ما لا يقال، أو لا يمكن أن يقال، لأن الصوفي في لحظة المكاشفة والمشاهدة يرى ما لا يمكن لغيره أن يراه، وبالتالي تقف اللغة المعيارية عاجزة عن التعبير عن هذه الحالة في تلبسها بالغموض والإبهام، ولذلك كان الرمز الصوفي عالما خاصا. (بلعاسي، د.س)

وتتكون هذه اللغة بطريقة رؤيوية تنحو فيها التجربة الحسية إلى التواري خلف طابع الأمثلة الكلية، وهذا يؤدي إلى امتداد الرموز في تجليات عديدة، ويفتر الإيقاع الخارجي بشكل واضح، وتنهض فيه أصوات مضادة، بل تأخذ الأقنعة في التعدد ويمضي في اتجاه مزيد من الكثافة والتشتت مع التناقض البين لدرجة في النحوية. (فضل، 1995)

إذن اللغة هي أساس التجربة الصوفية، وهذه اللغة الرامزة تتميز بالغموض والأساليب الرؤيوية، كما أن اللغة الصوفية تؤسس شعريتها بنفسها، فهي لغة تستقي معجمها من التراث الإسلامي ممثلا في النص المقدس (القرآن الكريم)، وكذا الحديث الشريف. (كعوان، 2006)

وإذا رُمنّا التمثيل بشعر يحيى السماوي وجدناه يقول في قصيدة "هواك الفرد":

"والضُّحَى واللَّيْلُ"

مَا أَشْمَسَ صُبْحِي دُونَ عَيْنَيْكَ

وَلَا زَانَ مَسَائِي غَيْرَ بَدْرِكَ (السماوي، 2012)

لغة تنضح بالجمال الذي أضفاه عليها القرآن الكريم. ويقول في قصيدة "المتماهيان":

ف"بَائِي آلَاءٍ" أَكْذِبُ حُبَّهَا؟ وَب"بَائِي آلَاءٍ" أَصَدِّقُ مُحْرِبَهَا؟

وَب"بَائِي آلَاءٍ" أُنَادِمُ غَيْرَهَا...؟ وَب"بَائِي آلَاءٍ" تُسَامِرُ مُعْجَبَهَا؟ (السماوي، 2012)

هذه الأبيات تعكس الثقافة الإسلامية الصوفية للشاعر، وكثرة ملازمته للقرآن، إن لم نقل حفظه له، وهذا

من أجل التقرب إلى الله تعالى، والتسامي حتى الوصول إلى سدرة المنتهى.

ويقول في قصيدة "تهجد في محرابها":

وَتَهَجَّدْتُ... وَسَبَّحْتُ..

وَرَتَّلْتُ جَهْرًا سَوْرَ

"الْإِنْسَانِ" ..

و"التَّوْبَةِ" ..

و"الإخلاص" ..

و"الفتح" ..

وبعض:

"النحل" و"الفرقان" ..

"طه" ... "مرثم" (السماعي، 2012)

هذه أبيات شعرية معبرة، كلها شاعرية، تتناص مع ألفاظ الأذان. كما أن اللغة الصوفية تكتسب شاعريتها من التشاكل والتباين وما يتركه من جرس موسيقي مثلها مثل الشعر العربي الحديث، وهذا ما جعل محمد مفتاح يرى أن التشاكل: "تنمية النواة المعنوية سلبيا أو إيجابيا بإحكام قسري أو اختياري لعناصر صوتية ومعجمية وتركيبية ومعنوية تداولية، ضمانا لانسجام الرسالة." (مفتاح، 1992) أي التشاكل هو ما يوفر الانسجام للنص من خلال التناغم والجرس الموسيقي. والتشاكل قد يكون صوتيا أو نحويا أو تركيبيا.

أما التباين أو ما يطلق عليه التقابل فهو "في النصوص انعكاس لنقائض الذات وخلاصة جدلها بالواقع والزمن في تحديد علاقتها بتشخيص الحياة." (فيدوح، 1993)

وسنتطرق لبعض النماذج التي ورد فيها التشاكل والتباين في ديوان "تعالى لأبحث فيك عني":

1. التشاكل:

يقول يحي السماوي في قصيدة "كل دروبي تؤدي إلها":

وهي المسرى إذا أسريت ..

والمأوى إذا أويت ..

والمحراب إن صليت ..

والمعراف إن غنيت يوما (السماعي، 2012)

لقد أشاع هذا التشاكل نغما موسيقيا بفعل تواتر صوت التاء (أسريت، أويت، صليت).

1.1. تشاكل الألفاظ:

وظف الشاعر يحي السماوي بعض الألفاظ المتشكلة، وهذا الجدول يبين ذلك:

اللفظة	التشاكل
المسرى	المأوى
المحراب	المعراف
أسريت	أويت
صليت	غنيت

ويقول في قصيدة "نسجت لها من القبلات ثوبا":

يُحَرِّضُنِي الْجَمَالَ عَلَى وَقَارِي فَأَنْسَى أَنِّي فِي النَّاسِ سِرٌّ

تَفِرُّ إِلَيَّ مِثْلِي فَرَطُ دُعْرِ فَيَغْدُو لَدَى عَذْرَاءٍ عَذْرُ

وَنُغْرِي رَوْضَةَ الشَّقَتَيْنِ نَغْرِي كَمَا يُغْوِي شَبَاكَ الصَّيْدِ بَحْرُ (السماعي، 2012)

وتفصيل التشاكل في هذا الجدول:

اللفظة	التشاكل
أنسى	الناس
ذعر	عذر
عذراء	عذري
ثغري	يغوي

2.1. تشاكل الجمل:

في ديوان السماوي طائفة من الجمل المتشاكلة، وهذا ما نقف عنده في قصيدة: "مد لي حبل جواب". يقول:

كَيْفَ أَصْبَحْتُ:

بَشِيرًا بِالْمَوَاوِيلِ..

نَذِيرًا لِلْأَحَالِيلِ..

نَدِيمًا لِلْقَنَادِيلِ..

هَزُوءًا بِالْمَجَاهِيلِ.. (السماوي، 2012)

الجملة	التشاكل
بشيرا بالمواويل	نذيرا للأحالييل
نديما للقناديل	هزوءا بالمجاهيل

نلاحظ أن خاصية التشاكل في الألفاظ والجمل أسهمت في إبراز شاعرية هذه المقطوعات الشعرية لما وفّرت من تناسق وانسجام وجرس موسيقي، كما تبين لنا مدى الإحساس المرهف الذي يمتلكه الشاعر، وهذا الإحساس ناتج عن قوة الإيمان والزهدي في الحياة والتقرب إلى الله (عَلَيْهِ السَّلَام).

2. التباين:

1.2. تباين الألفاظ:

يقول يحي السماوي في قصيدة "كل دروبي تؤدي إليها":

تَمَشَّيْتُ قَلِيلًا...

هَآ هِيَ الْآنَ أَمَامِي

بِخِمَارٍ

شَفَّ عَنْ وَجْهِ بَتُولِي...

عَلِمَهَا هَالَهُ مَائِيَّةٌ...

تَحْمِلُ قُرْآنًا يُمْنَاهَا وَبُسْتَانًا..

وفي اليُسْرَى قُرْآنًا ضَاحِكُ الْمَوْجِ

وَنَجْمًا (السماوي، 2012)

اللفظة	التباين/التقابل
يمناها	يسراها

ويقول في القصيدة نفسها:

مَرَّةً فِي سَالِفِ الْآتِي مِنَ الْأَيَّامِ

شَلَّ الدَّهْرُ عَكَازِي فَهَانَ الْعَظْمُ مِنِّي. (السماعي، 2012)

اللفظة	التباين/التقابل
سالف	الآتي

ويقول في قصيدة "المتماهيان":

حَبَلُ الْهَوَى وَهُوَ الْعَقِيمُ فَأَنْجَبَا طِفْلَيْنِ: هَمْرٌ أُتُوْتُهُ وَرُبَا صَبَا (السماعي، 2012)

العقيم	أنجبا
--------	-------

ويقول يحي السماوي في قصيدة "مد لي حبل جواب":

يَا سُؤَالَ

كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِي مَضْمُونِهِ

يَفْرَعُ لِي أَلْفُ سُؤَالٍ

أَيُّهَا السَّهْلُ..

العِصِيُّ..

الوَاضِحُ..

الغَامِضُ.. (السماعي، 2012)

السهل	العصي	الواضح	الغامض
-------	-------	--------	--------

2.2. تباين الجمل:

يقول السماوي في قصيدة "كل دروبي تؤدي إليها":

وَهِيَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ..

اللَّظَى الْمَاءُ...

النَّدَى الصَّخْرُ..

الدُّجَى النُّورُ

المُسَعَى

لِلَّذِي لَيْسَ يُسَعَى (السماعي، 2012)

تباين الجمل يظهر في الجدول أدناه:

الجنة والنار	اللظى الماء
الندى الصخر	الدجى النور

ويقول في قصيدة "نسجت لها من القُبَلات ثوبا":

حَمَلْتُ أَمِيرَتِي وَاللَّيْلُ سِرٌّ وَعُدْتُ بِرُكْبَتِهَا وَالصُّبْحُ جَهْرٌ (السماوي، 2012)

الليل سر	الصبح جهر
----------	-----------

ويقول في قصيدة "مدّ لي حبل جواب":

أَيُّهَا الْمَالِكُ وَالْمَمْلُوكُ..

وَالْعَاقِلُ وَالْمَخْبُولُ..

وَالطَّارِقُ وَالْمَطْرُوقُ..

وَالرَّحْمَةُ..

وَالنَّقْمَةُ..

وَالْكُفْرُ الْخَلَالُ (السماوي، 2012)

المالك والمملوك	الطارق والمطروق
العاقل والمخبول	الرحمة والنقمة

هذه العلاقات الضدية بين اللفظة وضدها، وبين الجملة وضدها، تدل على حالة الصوفي الذي يعيش الشيء وضده؛ فهو يعيش في الدنيا ويسعى للآخرة، وذلك عن طريق التقرب من الله (عَلَيْهِ السَّلَام) والتسامي نحو الذات الإلهية.

"إن هذه العلاقات التشاكلية والتقابلية قد أسهمت، إلى حد بعيد، في بلورة شعرية هذا النص، خاصة وأن هذه العلاقات لم تتوقف عند الدوال فحسب بل تتعدى إلى الجمل. ولعل التقابل من عناصر الفجوة فهو يخلق مسافة التوتر من خلال تضاد الدلالات بالنسبة للدوال." (كعوان، 2006)

ومما أسهم في شعرية النصوص، أيضا، الاستفهام وما صاحبه من تعجب.

3. الاستفهام:

وظف يحيى السماوي الاستفهام في العديد من المقاطع الشعرية، وأضفت على المعنى جمالا أخاذا. اخترت هذه المقاطع:

يقول في قصيدة "مدّ لي حبل جواب":

فَمَتَى هُذْهُدُكَ الْمَوْعُودُ

يَأْتِي

حَامِلًا بُشْرَاهُ بِالْفَرْدُوسِ

وَالْخَمْرُ الْخَلَالُ؟ (السماوي، 2012)

ويقول في القصيدة نفسها:

وأنا المرمرى في بئر السؤال:

ما الذي أَنْبَضَنِي؟

مَنْ دَجَّنَ الذُّنْبَ بِغَابَاتِي

فَأَضْحَى

حَارِسَ الْوَرْدِ (السمائي، 2012)

ويقول: في قصيدة "قناعة المضرع بجمر العشق":

مَا حَاجَتِي لِلْخَاتَمِ السَّحَرِيِّ؟

عِنْدِي:

نَخْلَةُ اللَّهِ الْمُبَارَكَةُ الْجَنَى وَالسَّعْفِ وَالْأَوْفِيَاءِ.. (السمائي، 2012)

ويقول في قصيدة "فيضان":

لَسْنَا بِعَصْرِ الْمُعْجَزَاتِ

فَكَيْفَ عَادَ مُضَرَّجًا بِالنَّبْضِ

عَاشِقُكَ الْقَتِيلُ؟ (السمائي، 2012)

ويقول في قصيدة "آخر العشاق":

عَلَّمْتَنِي كَيْفَ اصْطِيَادَ غَزَالَةِ الْمَعْنَى

وَكَيْفَ أُسَوِّقُ نَحْوَ الْبَيْدِ وَالْوَحَاثِ

قَافِلَةَ الْغُيُومِ الشَّارِدَةِ

وَأَعَدْتُ لِلْأَشْجَارِ خَضِرَتَهَا

وَلِلْأَنْهَارِ مَوْجَتَهَا

وَلِلْعِذْقِ الْيَبِيسِ نَضَائِدَهُ (السمائي، 2012)

بعد استعراض هذه الأبيات، نلاحظ أنها أبيات، ذات لغة شعرية صوفية قائمة على مبدأ التساؤل المستمر والمتكرر في معظم قصائد يحي السماوي، وهي لغة كاشفة لا تجيب عن الأسئلة وتجعل القارئ مشدوها إليها. ولعل أسس الكتابة الأدبية لدى رولان بارت تكمن في طرح الأسئلة لا في براعة الإجابة عنها، فالعلم في حد ذاته لا متناه وهو في حركة وتغير دائمين، والإجابة عن سؤال أبدي تفضي إلى نهاية محتومة لهذا الخفي. (كعوان، 2006) والاستفهام: هو أسلوب يطلب به العلم بشيء مجهول (عبد الله ص.، 2015)

4. التعجب:

حالة قلبية منشؤها استعظام فعل فاعل ظاهر المزية خافي السبب هذا ما دفعهم إلى قول إذا ظهر السبب بطل العجب وإذا كان اختفاء السبب سببا في حدوث العجب. (عبد الله ص.، 2015) وللتعجب حظه في الحضور لدى الشاعر. يقول في قصيدة "إسراء":

هُوَ يَبْنَ بَيْنَ، فَنِصْفُهُ شَبَحٌ جَنَّ.. وَنِصْفُ يُشْبِهُ الْبَشَرَا

خَبَرَ الْعَوَاصِفَ وَالسُّيُولَ فَتَى غَضَّ الْهَوَى وَاسْتَنْبَتَ الْحَجَرَ

إِنْ حَاصِرَتُهُ النَّارُ صَاحَ بِهَا: زَيْنُ الدُّلَى وَالْعَصْفَ وَالشَّرَرَ (السمائي، 2012)

الشاعر هنا يتعجب من حال الناسك المتعبد الذي اختار حب الله وتعبد له، وفي نفس الوقت يمد يده للنجم وكأنه حائر بين حياة الدنيا والزهد عنها.

ويقول في قصيدة "حلم ولا أبهى":

بَخَلْتُ وَتَدْرِي أَنَّ خُبْرَ سَطُورِهَا زَادِي بِصَحْنِ صَبَابَتِي وَتَهَيَّي
دَخَلْتُ بِسَاتِيْنِي فَأَنْضَجَ خَطُوهَا الْتَيْنَ وَالزَّيْتُونَ قَبْلَ الْمَوْسِمِ (السماوي، 2012)

ويقول في قصيدة "تهيمني هواك":

رُوَيْدَكَ... لَسْتُ أَوَّلَ مُسْتَهَامٍ غَفَا فَأَفَاقَ جَمْرًا فِي وَجَاقِ
رُوَيْدَكَ.. لَا تَكُنْ لِلْسَيْفِ غَمْدًا كَأَنَّكَ وَالْفَجِيعَةَ فِي سَبَاقِ (السماوي، 2012)

الشاعر يتعجب هنا ممن ينام في غفلة ويستيقظ على جمر الفجيرة، ويحاول مهرولا التقرب إلى الله والتعبد، والتجهد والتماهي للوصول إلى سدرة المنتهى واستدراك ما فاتته حين غفلته.

ويقول في قصيدة "اكتشاف متأخر":

تَعِبَ السَّوَالُ مِنَ السَّوَالِ...

وَمِنْ مَتَاهَتِهِ خَيَالِي..

وَالسُّطُورَ مِنَ الدَّوَاةِ..

وَلَمْ أَجِدْ

مَنْ يَرْفَعُ الْأَنْقَاضَ عَنِّي! (السماوي، 2012)

من هذه المقطوعات الشعرية نلاحظ كثرة استعمال أسلوب التعجب لدى الشاعر، فهو يتعجب من الحالة التي وصل إليها أهل الدنيا ورغم ذلك فهم متمسكون بها. ويتعجب من غفلتهم وعدم مساعدتهم لبعضهم البعض، فهو لم يجد من يساعده ويرفع الأنقاض عنه!

خاتمة:

بناء على ما تقدم نصل إلى أن الشاعر المعاصر يلجأ إلى التجربة الصوفية للعودة إلى الجانب الروحي بعد الضياع بين الأصالة والمعاصرة والتجديد القادم من الغرب. خاصة وأن هذه الموجة التجريبية تسعى إلى كسر المألوف وتجاوز القيود بما أن اللغة الصوفية تتميز بالشعرية شأنها شأن الشعر العربي.

الإحالات والمراجع:

- صلاح رمضان عبد الله. (2015). اساليب التعجب في العربية (دراسة نحوية). مجلة جامعة البحر الاحمر، صفحة 18.
- صلاح فضل. (1995). اساليب شعرية معاصرة ط1. بيروت: دار الآداب.
- عبد القادر فيدوح. (1993). دلالية النص الأدبي، دراسة سيميائية للشعر الجزائري، ط1. وهران: ديوان المطبوعات الجامعية.
- محمد بلعباسي. (د.س). شعرية اللغة الصوفية في الشعر الجزائري المعاصر. (جامعة الشلف، المحرر) مجلة تاريخ العلوم، صفحة 112.
- محمد كعوان. (2006). اللغة الصوفية بين الدلالة المعجمية والدلالة السياقية. (المدرسة العليا للاساتذة قسنطينة، المحرر) مجلة منتدى الاستاذ، صفحة 170.
- محمد مفتاح. (1992). تحليل الخطاب الشعري استراتيجيات التناس، ط3. المركز الثقافي العربي الدار البيضاء.
- يحيى السماوي. (2012). تعالى لأبحث فيك عني. استراليا: مؤسسة المثقف العربي.